أبو الحسن الندوى

الحسن البصرى

المختار الإسلامى

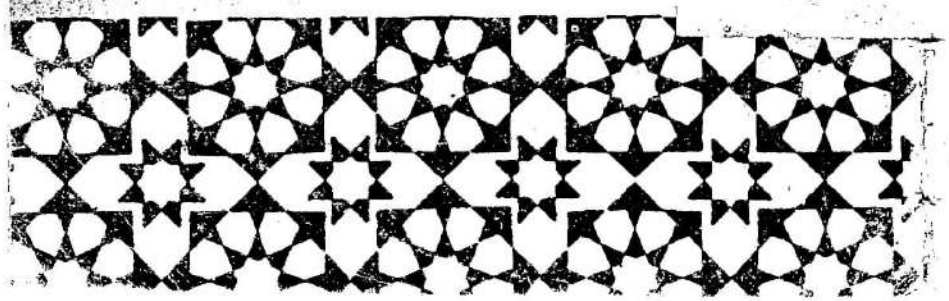

مطابع الأهرام التجارية

كان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع ، ونفوذه فى القلوب والعقول ، أنه ضرب على الوتر الحساس ، ونزل فى أعماق المجتمع ، ووصف أمراضه ، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق ، والناصح الشفيق ، لقد كان عصره يغص بالدعاة والوعاظ ، ولكن المجتمع لم يخضع لأحد خضوعه للحسن ، لانه كان يمس قلبه وينزل فى صميم الحياة ، ويعارض التيار . انه كان ينعى على الاخلاد الى الحياة والانهماك فى الشهوات . وقد انتشر هذا المرض فى الحياة . انه كان يذكر بالموت . ويستحضر الآخرة . والمترفون يتناسون ذلك ويعللون نفوسهم بالأمانى الكاذبة والاحلام اللذيذة ، ويتضايقون بذكر ما يكدر عليهم الحياة ويعكر صفو عيشهم ، فكان دائما فى صراع مع الجاهلية . والجاهلية لا تخضع الا لمن صارعها . ولا تعترف الا بوجود الرجل الذى يحاربها . وكان الحسن البصرى هو ذلك الرجل . فعظم تأثيره وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها وانطلقت موجة الاصلاح قوية مؤثرة ، لان الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يلقيها ، بل كان يعنى بتربية من يتصل به ويجالسه . فكان جامعا بين الدعوة والارشاد ، وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية ، فاهتدى به خلائق لا يحصيهم الا الله ، وذاقوا حلاوة الايمان وتحلوا بحقيقة الاسلام . وقد صدق عوام بن حوشب اذ قال : « ما اشبه الحسن الا بنبى اقام فى قومه ستين سنة يدعوهم الى الله » ..

المختار الإسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ـ ص. ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

www.abulhasanalinadwi.org

أبو الحسن الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحسن البصري

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة — ص . ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

الانحطاط الخلقى والايمانى فى الأمة :

عادت الخلافة — عقب وفاة عمر بن عبد العزيز — سيرتها الأولى ، وانشبت الجاهلية أظفارها فى المجتمع الاسلامى ، وكأن الخليفة بعده كان حريصا على ان يملأ هذا الفراغ الذى أحدثه عمر فى اتجاه الخلافة المستمر ، وكذلك من جاء بعده من الخلفاء .

لقد نشأ الترف فى المجتمع الاسلامى — كما قدمنا — لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ، ونشأت طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسيتهم ، وكثرت الأموال وأدوات الترف ، واشتدت الاغراءات المادية وفعلت فعلها فى المجتمع حتى أشرف الايمان والعمل الصالح — وبهما تمتاز هذه الأمة عن غيرها من الأمم ، وفيهما سر قوتها وانتصارها ، وهما تراث النبوة — على الضياع والتلف ، وأصبحت هذه الأمة تتقدم الى انهيار فى الأخلاق والروح ، وخمود فى العاطفة والشعور الايمانى ، وضعف فى صلتها بالله بخطى واسعة ، وكان ذلك نذيرا لكارثة كبرى ، كارثة أصيبت بها الأمم من قبل ، وهى الافلاس فى الايمان والروح والأخلاق ، وهى خسارة لا تعوضها

www.abulhasanalinadwi.org

الدول والحكومات والفتوح المادية والسياسية ، ولا بقـاء لأمة ـ ذات رسالة وعقيدة ـ بعد ذلك .

بدت طلائع هذه الفاجعة فى الأفق ، والخلافة مشغولة عن ذلك ، بل هى السبب فى حلولها ودنوها ، ولو ارادت أن تمنع وقوعها لما استطاعت ، لأن القائمين على راسها لا يملكون تلك المؤهلات التى يستطيعون بها أن يواجهوا هذه الفاجعة ، وهى الايمان القوى والحياة النزيهة ، والأخلاق الاسلامية ، والدعوة التى تملك عليهم قلوبهم ومشاعرهم ، انما هى طبقة من المترفين المتنعمين يحتاجون بأنفسهم الى الدعوة والتربية .

لقد كان هذا التطور خطرا كبيرا على هذه الأمة ، وكان ابعث على القلق من انتقاص أطراف مملكة الاسلام الواسعة ، وقلـة مواردها ، الى غير ذلك من الحـوادث السـياسية والتطورات الاقتصادية ، وذلك لأن الايمان ليس خلقه فى أمة أمرا يسيرا ، وليس لكل أحد أن يبعث هذا الايمان ، واذا زال لا يعود فى الغالب ، وتاريخ الأمم والديانات شاهد على ذلك . تفلس أمة فى الايمان وتملك كل شىء ، وتنقطع صلتها بربها وتتصل بكل شىء ، فلا تعود سيرتها الأولى ، ولا تسترد ذلك الايمان وتلك الصلة القوية بالله ، وتذهب جهود المصلحين والدعاة هباء منثورا . وهذه الأمم الأوربية والأمة الهندوكية العظيمة تصدق هذه الحقيقة . ان هذا الايمان بالله ، وان هذه الصلة الحية القوية التى عرفت بها هذه الأمة ، وسحقت بها الأمم ، وأخضعت بها العالم ، وان هذه المظاهر الايمانية التى تقرأ أمثلتها الرائعة فى تاريخ العهد النبوى والخـلافة الراشدة : من انابة صادقة الى الله ، وثقة به ، وتفان فى سبيله ، وعزوف عن الشهوات ، واستهانة بزخارف الحياة ، وشوق الى الشهادة ، وحنين الى الجنة ، وخشوع فى الصلاة ،

ولذة فى الدعاء ، وعطف ومواساة ، وزهد وايثار ، الى غير ذلك ، مما هو نتيجة الايمان القوى العميق ، انما كان منحة النبوة وتأثير الشخصية النبوية الفذة التى سعد بها العالم مرة فى التاريخ ، فاذا تجردت الأمة من هذه الثروة الايمانية التى منحتها النبوة الأخيرة وشخصية الرسول المعجزة ، فقد تجردت من رأس مالها ، وأفلست افلاسا تاما ، ولا مطمع فى ايجاد هذا الايمان ، واعادة هذه الثروة بعد ما انقطعت النبوة . أما تجديد هذا الايمان وتقويته قبل أن يزول ، والمحافظة على هذه الثروة والزيادة قبل أن تضيع ، فممكنة وميسورة ، اذا قام لذلك رجال أكفاء . وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد .

لقد واجهت الأمة فى سيرها نقطة تحول ، قد فطن لها من فتح الله بصيرته ، والهمه الحكمة والدعوة ، عرفوا أن الأمة مهددة بخطر هو أعظم من الخطر الخارجى ومن الأخطـار السياسية ، هو خطر المادية الجارفة ، والانحطاط الخلقى والروحى ، ما أصيبت به أمة الا كانت فريسة للأدواء الخلقية والاجتماعية ، وخواء الروح ، وافلاس الباطن ، وعبـادة الشهوات ، والتنافس فى الحيـاة وما أصيبت بذلك أمة الا ضعفت وطويت مع الأمم الغابرة ، وقد أنبأ بهذا الخطر لسان النبوة قبل حدوثه ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خطب قبل وفاته خطبة أنذر فيها المسلمين بهذا الخطر وقال : « ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها كمـا تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم (١) » .

لقد حل هذا الخطر ، وتحقق الذى تخوفه النبى صلى الله

(١) صحيح مسلم : كتاب الزهد .

www.abulhasanalinadwi.org

عليه وسلم على هذه الأمة ، وقد بلغ ذلك أوجه فى عهد بنى أمية، ولكن الله لطف بهذه الأمة ، اذ قيض لمواجهته ، والوقوف فى وجهه رجالا مخلصين ، ودعاة مؤمنين ، عارضوا هذا التيار بكل ما عنـدهم من قوى ومواهب ، ومنعوا عددا كبيرا من المسلمين أن تجرفهم المادية وتستعبدهم الشهوات . انهم لم يستطيعوا أن يحولوا التيار أو يوقفوا سيره ، ولكنهم استطاعوا أن يبطئوا سيره وينقذوا من لجته من استمع اليهم او جالسهم وتأثر بدعوتهم . ان لهم فضلا لا ينساه الاسلام ، ولا يغمطه التاريخ ، لأنهم كانوا سببا وعاملا قويا فى استمرار الاسلام الروحى والخلقى الذى هو أهم من استمرار هذه الأمة النسلى والسياسى ، فاذا كان الفضل فى بقاء هذه الأمة ذات عدد كبير ومكانة سـياسية يرجع الى المجاهدين وملوك الاسـلام ، فالفضل فى بقائها أمة ذات عقيدة ودين وأخلاق خاصة ، وطابع خاص تمتاز به بين الأمم ، يرجـع الى هؤلاء الدعاة المخلصين والمصلحين المجاهدين الذين بذلوا جهدهم فى المحافظة على خصائص هذه الأمة الباطنية والنفسية ، واتصال حياتها الروحية والخلقية ، ولا شك أن فضلهم أكثر ، ومنتهم أعظم ، فلا خير فى بقاء هذه الأمة من غير هذه الخصائص ، ولا لذلك بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا دعوته ، وجاهد الصحابة والتابعون لهم باحسان ، ولا لذلك كانت بدر وأحد ، واليرموك والقادسية ، ولا لذلك استحق المسلمون النصر والتأييد من الله ، انما كان كل ذلك للعقيدة التى يعتقدونها ، والأخلاق التى يتصـفون بها ، والدعوة التى يحملونها ، والسمعة التى يتسمون بها ، فمن سـاهم فى ذلك فهو من محسنى هذه الأمة وخلفاء الرسول بالحق ، والأمة مدينة له بالفضل الى أن تقوم القيامة .

لقد كان هؤلاء الدعاة والمصـلحون منبثين فى الحـواضر

الاسلامية ، مرابطين على الثغور ، قائمين بالدعوة ، وليس كل أحد منهم ذكره التاريخ ، وليس كل أحد سجلت مواقفه ونتائج دعوته وجهاده ، ولكن اشتهرت منهم جماعة من فضلاء التابعين كان أشهرهم سعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ، ولكن الذى حمل هذه الراية ، وتفرد من بينهم بالامامة ، هو الحسن البصرى .

الحسن البصرى شخصيته ومؤهلاته :

ولد الحسن البصرى سنة ٢١ للهجرة ، وابوه يسار ، مولى زيد ابن ثابت ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتب الوحى ، وأمه خيرة ، مولاة أم سلمة ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، نشأ فى بيتها ، ولقى جماعة كثيرة من الصحابة وسمع منهم .

وقد جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثر فى قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين فى المجتمع ، فقد كان واسـع العلم غزير المادة فى التفسـير والحديث ، ولم يكن لأحد فى ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالاصلاح ، الا اذا كان متوفرا على هذين العلمين ، وقد أدرك عصر الصحابة وعاصر كثيرا منهم ، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة ، وأدرك روحه ، وعـرف كيف تطور المجتمع الاسـلامى ، ومن أين انحرف . وكان واسـع الاطلاع ، دقيق الملاحظة للحيـاة ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعللها وأدوائهـا ، كطبيب مارس العلاج مدة .

وكان مع ذلك غاية فى الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى

www.abulhasanalinadwi.org

مستمعيه ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما رأيت أفصح من الحسن البصرى ، والحجاج بن يوسف ! والحسن أفصح منه » . وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم ، قال الربيع بن أنس : اختلفت الى الحسن عشر سنين ، وما من يوم الا أسمع منه ما لم أسمع قبله . وقال محمد بن سعد : كان الحسن جامعا عالما رفيعا فقيها ، ثقة مأمونا ، عابدا ناسكا ، كثير العلم ، فصيحا ، جميلا وسيما ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، واجتمع الناس اليه ، وقالوا : لم نر مثل هذا قط ! وقد وصفه ثابت بن قرة — كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى — فقال :

« كان من درارى النجوم علما وتقوى ، وزهدا وورعا ، وعفة ورقة ، وفقها ومعرفة ، يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقف منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ ، وهو فى جميع ذلك كالبحر اللجاج تدفقا ، وكالسراج الوهاج تألقا ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل واللفظ الجزل .

وكان فوق ذلك كله وهو سر تأثيره فى القلوب ، وسحره فى النفوس ، وخضوع الناس له — وقد قسوا على كثير من الوعاظ والعلماء — أنه كان صاحب عاطفة قوية ، وروح ملتهبة . وكان من كبار المخلصين ، وكان يجمع بين بلاغة اللسان ، وقوة الايمان ، وكان يؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقده ، وكان الذى يقول يخرج من القلب فيدخل فى القلب ، وكان اذا ذكر الصحابة ، أو وصف الآخرة ، أدمع العيون وحرك القلوب ، لأنه يتذوق الايمان ، ويتكلم عن عاطفة

ووجدان ، لذلك كانت حلقته فى البصرة أوسع الحلقات ، وانجذب الناس اليه انجذاب الحديد الى المغناطيس — وذلك شأن أهل القلوب والاخلاص فى كل زمان — وكان من أعظم ما امتاز به هو أن كلامه كان من أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة ، قال الغزالى فى احياء العلوم : « ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم ، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك (١) » .

كان نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة ، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة الى النفوس ، وكان الناس مأخوذين بسحرها ، خاضعين لعظمتها ، حتى قال ثابت بن قرة الحكيم الحرانى : « ان الحسن من أفراد الأمة المحمدية التى تتباهى بهم على الأمم الأخرى » .

مواعظ الحسن البصرى :

ومواعظ الحسن البصرى تجمع بين القوة والسهولة التى عرف بها كلام عهد الصحابة ، وهى تدور غالبا حول قصر الحياة وغدر الدنيا ، وخلود الآخرة ، والحث على الايمان والعمل الصالح والتقوى والخشية والتحذير من غرور وطول الآمال . ولا شك أن المجتمع الذى افترسته المادية ، واستحوذت عليه الشهوات ، وأصيب بالاغراق فى الترف ، والامعان فى الأمانى ، كان فى حاجة ملحة الى مثل هذه المواعظ التى تكشف الغطاء عن العيون ، وتمس القلوب ، وكان يصور فى أكثر مواعظه عصر الصحابة ، وما اتسم به من أخلاق

(١) احياء العلوم : ج ١ ص ٦٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

وصفات ، ويقارن بين عصرهم وعصره ، ويصف التدهور الذى أصيب به المجتمع الاسلامى فى الايمان والأخلاق . وكان اذا وصل الى هذه النقطة اثار الأحزان ، وأهاج الوجدان . ومواعظه مثال جميل للنثر البليغ ، والأدب الرفيع ، وموضوع دراسة الأديب والناقد ، وأقدم هنا مثالين من هذه المواعظ ، فمنها موعظته يذكر فيها عهد الصحابة ، ويصف المؤمن :

« هيهات هيهات ! أهلك الناس الأمانى : قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وايمان بلا يقين ، مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا ! وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ! دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرموا ثم استحلوا ، انما دين أحدكم لعقة على لسانه ، اذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين ، ان من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وايمانا فى يقين ، وعلما فى حلم ، وحلما بعلم ، وكيسا فى رفق ، وتحملا فى فاقة ، وقصدا فى غنى ، وشفقة فى نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء فى الحقوق ، وانصافا فى الاستقامة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فى مساعدة من يحب ، لا يهمز ولا يغمز ولا يلمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ولا يلعب ، ولا يمشى بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذى عليه ، ولا يتجاوز فى العذر ، ولا يشمت بالفجيعة ان حلت بغيره ، ولا يسر بالمعصية اذا نزلت بسواه .

المؤمن فى الصلاة خاشع ، والى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم ، ان أحسن استبشر ، وان أساء استغفر ، وان عتب استعتب ، وان سفه عليه حلم ، وان ظلم صبر ، وان جير عليه عدل ،

ولا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين الا بالله ، وقور فى الملأ ، شكور فى الخلاء ، قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابر على البلاء ، ان جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وان جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، الأول فالأول ، حتى لحقوا بالله عز وجل وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وانما غير بكم لما غيرتم ، ثم تلا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (١) » .

وموعظة أخرى يفسر فيها آيات من سورة الفرقان ، ويصف المؤمنين الأولين :

« ان المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها ، وأفضى يقينها الى قلوبهم ، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وابصارهم ، كنت والله اذا رأيتهم رأيت قوما كأنهم رأى عين ، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر من عند الله فصدقوا به ، فنعتهم الله فى القرآن أحسن نعت ، فقال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » والهون فى كلام العرب ، اللين والسكينة والوقار « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » حلماء لا يجهلون ، وان جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر ليلهم خير ليل فقال : « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » ينتصبون لله على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجدا لربهم ، تجرى دموعهم على خدودهم فرقا من ربهم ، لأمر ما سهروا

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى : ص ٦٩ ، ٦٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

ليلهم ، ولأمر ما خشوا نهارهم ، قال « والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما » وكل شيء يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، انما الغرام اللازم له ما دامت السموات والأرض ، صدق القوم والله الذى لااله الا هو ، فعملوا وانتم تتمنون ، فاياكم وهذه الأماني رحمكم الله ! فان الله لم يعط عبدا بأمنيته خيرا فى الدنيا والآخرة (١) » .

صدعه بالحق وشجاعته أمام رجال الحكم :

وكان الحسن البصرى صادعا بالحق ، شجاعا لا يخشى فى صدعه بالحق غائلة ، وهذه الشجاعة لها قيمتها ومكانتها فى **الحكومات الشخصية التى لم تزل حرة فى تصرفاتها وأهوائها، عنيفة قاسية فى حكمها ، سريعة متهورة فى تنفيذ ارادتها وانفعالاتها** ، وقد روى التاريخ من أخبار شجاعة الحسن الدينية ما يرفع مكانته فى علماء عصره ، ودعاة الاصلاح ، منها ما رواه ابن خلكان ، قال « لما ولى عمر بن هبيرة الفزارى العراق ، وأضيفت اليه خراسان ، وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ، وذلك فى سنة ثلاث ومائة فقال لهم : ان يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، فيكتب الى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون ؟ قال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تقية ، قال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال يا ابن هبيرة ! خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله . ان الله يمنعك من يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من

(١) قيام الليل : ص ١٢ .

سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك . يا ابن هبيرة ! ان تعص الله فانما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده لسلطان الله : فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فأجازهم ابن هبيرة ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا .

وروى ابن سعد فى طبقاته ، باسناده عن مسلم بن أبى الديال ، قال : « سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال : لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فقال رجل من أهل الشام : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ، ثم قال بيده فخطر بها ، ثم قال ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ، نعم ! ولا مع أمير المؤمنين (١) » .

النفاق والمنافقون فى الدولة الاسلامية :

لقد نشأت فى المملكة الاسلامية بحكم نفوذ الاسلام السياسى والمادى ، طبقة تدين بالاسلام ، وتتسمى بالمسلمين ، ولكنها لم تسغ الاسلام اساغة يطلبها الاسلام ، ولم تمثله فى أخلاقها وسلوكها وميولها انها لم تتحقق بحقيقة الايمان ، ولم تدخل فى السلم كافة كما يأمر به القرآن ، وقد وجد فى الجيل الاسلامى الجديد الذى لم تتم تربيته على أساس الاسلام ، رجال لم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من النزعات الجاهلية ، ولم تكن صلتهم بالاسلام صلة عميقة متغلغلة فى الاحشاء ، مسيطرة على الحياة والتفكير ، وقد وجد فى المجتمع ، وبصفة خاصة فى دوائر الحكومة ، وفى أوساط الأمراء والأغنياء ، أفراد —

(١) طبقات ابن سعد : ج ٧ ، ص ٢١٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

ليس عددهم قليلا — يمثلون بأخلاقهم وأساليب حياتهم ومناهج تفكيرهم المنافقين القدماء ، وهؤلاء هم الذين كانت لهم السيطرة على الحياة والنفوذ فى المجتمع ، يشغلون فى الحكومة مناصب خطيرة ، ويحتلون فى الجيش مراكز كبيرة ، وكانت عاداتهم وأخلاقهم وأزياؤهم هى التى يقلدها المتطرفون والمتأنقون من الشباب والأغنياء .

اعتقد بعض العلماء ، ان النفاق قد انقرض ، وانه كان مرضا محليا ومؤقتا اقتضته الظروف الخاصة فى العصر الاسلامى الأول ، فلما غلب الاسلام وزالت شوكة الكفر وانتهى الصراع بين فكرتين متنافستين وبين قوتين متحاربتين ، وبقى الاسلام لا يصارعه الكفر ، فقدت الطبقة التى كانت تعالج صراعا نفسيا ، وتتأرجح بين الاسلام والكفر ، فلا تخلص لأحد منهما ، وتتمتع بمنافعهما فى وقت واحد ، أما وقد بقى اسلام ولا كفر — كما هو الشأن فى الدولة الاسلامية — أو كفر ولا اسلام — كما هو الشأن فى دار الحرب — فلا حاجة الى هذا الأسلوب من التفكير وهذا الطراز من النفسية ، ولا محل للنفاق فى دار الاسلام التى يحكم فيها الاسلام ، ويسود فيها الدين ، وقد راجت هذه الفكرة فى الأوساط العلمية فى الزمن المتقدم ، وترى لها ظلالا فى كتب التفسير والتاريخ .

ولكن يجب أن يلاحظ ، أن النفاق علة قديمة من علل الفطرة البشرية ، يصاب بها ضعاف النفوس فى كل عصر من العصور . ولا يتولد هذا المرض فى مجتمع يتصارع فيه الاسلام والكفر ويتكافآن فحسب ، بل يتولد كذلك حيث يسيطر الاسلام ويحكم . فتوجد طبقة لا تسيغ الاسلام بسبب من الأسباب ، ولكنها لا تملك الشجاعة التى تحملها على انكار الاسلام والاعلان بعقيدته وموقفه أو لا تسمح مصالحه وأغراضه وملابساته

بأن تتنازل عن الفوائد والمناصب التى تتمتع بها بفضل الانتساب الى الاسلام . وعن المركز الذى تحتله فى الأمة لأجل ثقتها بها واعتمادها عليها . فهى تستغل الاسلام لمصالحها وتظهر فى مظهر لتحافظ على شخصيتها وتؤمن مستقبلها ، ولكنها لا تخضع للاسلام خضوعا حقيقيا ولا تسيغ فكرته وعقيدته ونظامه . فتظل طول حياتها مذبذبة بين الاسلام والكفر . مضطربة اضطرابا عقليا ونفسيا وعمليا . تحكى المنافقين السابقين فى فساد الأخلاق ، وعبادة الشهوات والتهالك على اللذات ، وانتهاز الفرص ، وترجيح المصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية ، والجراة والاستئساد على الضعفاء ، والجبن والخور أمام الأقوياء .

وقد وجد فى العلماء والمحققين من أثبت أن النفاق ظاهرة اجتماعية وعلة نفسية لا ينحصر فى زمان خاص ومكان خاص . يعجبنى فى ذلك كلمة للمفكر الاسلامى الكبير شيخ الاسلام أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوى ، المعروف بالشيخ ولى الله ، فقد قال فى كتابه البديع « الفوز الكبير فى أصول التفسير » بعد ما ذكر أن النفاق قسمان : النفاق فى العقيدة ، والنفاق فى العمل والاخلاق : أما النفاق فى العقيدة فان كان ممكنا وواقعا بعد عصر الرسالة ، ولكنه لا يمكن الجزم به لانقطاع الوحى . أما نفاق العمل والأخلاق ، فكثير وشائع فى كل عصر من العصور . يقول : « ان النفاق شائع ومشاهد فى هذا العصر . وان احببت أن ترى أنموذجا للمنافقين ، فعليك بمجالس الأغنياء وندمائهم ، كيف آثروا هوى سادتهم على حكم الشارع ، ان الحق يجب أن يقال : انه لا فرق بين من سمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم من غير واسطة ، واختار النفاق ، وبين من ولد فى هذا العصر ، وعرف بطريق اليقين حكم الشارع ثم آثر ضده عليه ورجح كلام غيره ، وكذلك جماعة من علماء

www.abulhasanalinadwi.org

الفلسفة والعلوم العقلية اليونانية — فى الاسلام — يحملون شبهات عظيمة ، وشكوكا كثيرة فى قلوبهم ، ونسوا المعاد حتى لا يخطر منهم على بال ، هم نموذج المنافقين فى عصرنا » .

دلالة الحسن البصرى على النفاق والمنافقين ونفـــوذه فى المجتمـــع

لقد كان من ذكاء الحسن البصرى وفطنته الدينية ، انه اهتدى الى أن النفاق لا يزال يعيش فى المجتمع الاسلامى ، وان المنافقين لهم صولة وجولة فى الدولة الاسلامية ، وسيطرة على الحياة والسياسة ، وأن المدن الكبيرة والعواصم الاسلامية مدينة لهؤلاء فى الزهو واللهو ، قال له رجل يا أبا سعيد ! اليوم نفاق ؟ قال : لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها (١) ، وقال فى مناسبة أخرى « يا سبحان الله ! ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها (٢) » يشير الى الحكام والأمراء . وقال مرة : لو خرجوا لما انتصـــفتم من عدوكم » يشير الى الجيش الاسلامى وقواده . وهكذا تناول الطبقات الممتازة فى الأمة ، وبين أن فيها النفاق والمنافقين ، وأن لهم السيادة والغلبة .

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع ، ونفوذه فى القلوب والعقول ، أنه ضرب على الوتر الحساس ، ونزل فى أعماق المجتمع ، ووصف أمراضه ، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق ، والناصح الشفيق ، لقد كان عصره يفيض بالدعاة والوعاظ ، ولكن المجتمع لم يخضع لاحد خضـــوعه للحسن ، لأنه كان يمس قلبه وينزل فى صميم الحياة ، ويعارض

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للمحدث ابى بكر : ص ٦٨ .
(٢) أيضا : ص ٥٧ .

التيار . انه كان ينعى على الاخلاد الى الحياة والانهماك فى الشهوات . وقد انتشر هذا المرض فى الحياة . انه كان يذكر بالموت ، ويستحضر الآخرة . والمترفون يتناسون ذلك ويعللون نفوسهم بالأمانى الكاذبة والأحلام اللذيذة ، ويتضايقون بذكر ما يكدر عليهم الحياة ويعكر صفو عيشتهم ، فكان دائما فى صراع مع الجاهلية . والجاهلية لا تخضع الا لمن صارعها . ولا تعترف الا بوجود الرجل الذى يحاربها . وكان الحسن البصرى هو ذلك الرجل . فعظـــم تأثيره وكثر التائبـــون والمقلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها وانطلقت موجة الاصلاح قوية مؤثرة ، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يلقيها ، بل كان يعنى بتربية من يتصل به ويجالسه . فكان جامعا بين الدعوة والارشاد ، وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية . فاهتدى به خلائق لا يحصيهم الا الله ، وذاقوا حلاوة الايمان وتحلوا بحقيقـــة الاسلام . وقد صدق عوام بن حوشب اذ قال : « ما أشبه الحسن الا بنبى اقام فى قومه ستين ســـنة يدعوهم الى الله (١) » .

وفاة الحسن البصرى :

وكان من أثر هذا الاخلاص ، والتفانى فى الدعوة ، والتأثير فى القلوب ، أنه أجمعت القلوب على حبه والاعتراف بفضله وشغلت به البصرة . وكانت المدينة التى تلى دمشق فى العظمة والأهمية فى ذلك العصر . حتى اذا مات فى سنة ١١٠ هـ . — وكان دفنه بعد صلاة الجمعة — تبع الناس كلهم جنازته ، واشتغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بالجامع ، لأنه لم يبق

(١) دائرة المعارف للبستانى ، ج ٧ ص ٤٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

بالمسجد من يصلى العصر . وقال بعضهم ممن شهد جنازته « لا أعلم أن صلاة العصر تركت فى الاسلام (يعنى فى جامع البصرة) الا يومئذ (١) » .

وجرى خلفاء الحسن — ممن توارثوا علمه وروحه — على الدعوة الى الله والتذكير بالآخرة ، والدعوة الى حقيقة الايمان وسيرة الاسلام ، وهكذا اتصل تاريخ الاصلاح والتجديد والدعوة الى الاسلام الحقيقى من جديد لا تتخلله فترة ، وانتقلت العاصمة الاسلامية بعد اثنتين وعشرين سنة بوفاة الحسن البصرى من دمشق الى بغداد ، وأصبح العراق مركز الحضارة والسياسة فى عالم الاسلام .

(١) ابن خلكان : ترجمة الحسن البصرى .

فهـــــرس

الموضوع	صفحة
الانحطاط الخلقى والايمانى فى الأمة . . .	٥
الحسن البصرى شخصيته ومؤهلاته . . .	٩
مواعظ الحسن البصرى	١١
صدعه بالحق وشجاعته أمام رجال الحكم . .	١٤
النفاق والمنافقون فى الدولة الاسلامية . . .	١٥
دلالة الحسن البصرى على النفاق والمنافقين ونفوذه فى المجتمع	١٨
وفاة الحسن البصرى	١٩

www.abulhasanalinadwi.org